

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :  
فأظن أن التصدير البليغ المشكور الذي كتبه صديقنا وعالمنا الأستاذ الدكتور حسن الساعاتي عميد كلية الآداب بجامعة عين شمس يُعني عن سرد قصة هذا الكتاب .  
وأظن التمهيد الذي سبّل هذه المقدمة يُعني أيضاً عما تواضع المؤلفون عليه في المقدمات من التنبيه على أهمية ما يتناولونه من موضوعات .

وهذا الكتاب المتواضع هو - من مشروع الجمع الصوّقي الأول للقرآن أو المصحف المرتل - بمثابة الدليل الموضح ، أو الملحق الشارح .

وسيرى القارئ أني أخذت نفسي بالموضوعية إلى أبعد مدى استطعته ، وأنّي - في مناقشتي لكثير من الآراء - لم أنفعل قط ، ولم أتعصب ؛ كما سيرى أني - على ما تعودته مني في كل إنتاجي المتواضع - أعزو كل شيء أوردته للاستشهاد أو للاعتضاد إلى صاحبه في أمانة وتحرز بالغين .

وسيرى أن مراجعي لم تقف عند كتب العلوم القرآنية ، وإنما تعدّتها إلى المتفرقات المبعثرة والشوارد البعيدة في كتب التاريخ والفقه والأصول واللغة والأدب والشعر وغيرها .

هذا ، وفي كل رأي أحييت أن يشاركني فيه القارئ ، عرضت عليه - بادئ ذي بدء - من المعارف الموثقة ما أظنه يرضى حاجته ويثنى غلته ، ولم أدعه يُلِمّ بهذه المعارف إمامة المتعجّل الخاطف ، بل لعلى مكنته من أن يقف وقفة المطمئنّ المُستأنى .

وأظنني - في ثنايا كتابتي - جلوتُ في الموضوعات القرآنية كثيراً مما يخفى مثله على الكثيرين ، وسهّلتُ ما يصعب مثله على غير المتخصّصين .

• • •

والكتاب من قسمين ، يسبقهما التمهيد الذي أشرتُ إليه آنفاً ، وتليهما الخاتمة .  
فأما القسم الأول فهو تاريخ مفصّل للمرات الثلاث لجمع القرآن : جمع أبي بكر ، وجمع عثمان ، ثم هذا الجمع الصوّقي الأول .

وأظنّ هذا القسم قد استنبط - في توفيق - مِنْهَاجِيّ الجمعِين المكتوبين ، وأبطل دعاوي الطاعنين عليهما ، بما لا حاجة بعده - غالباً - إلى مزيد .

وفي الحديث عن الجمع الثالث أو الصوتي الأول أو المصحف المرتل : فكرته ، وتنفيذه ، وردت تفاصيل كثيرة أرجو أن لا ينكرها القارئ ، فإن ذكرها هو من مقتضيات الأمانة التاريخية ، وإسقاطها - عند أصحاب أصول البحث - ليس سديداً .

وأما القسم الثاني وهو الخاص بالأغراض التي يقصدها مشروع الجمع الصوتي الأول للقرآن فهو في أبواب ثلاثة : (أولها) عن حفظ القرآن في ذاته ، و (ثانيها) عن الغاية التعليمية للمشروع ، و (ثالثها) عن مهمته الدفاعية .

وأظنّ الباب الأول ، في شأن التلقّي الشفويّ كوسيلة للحفظ السليم ، وفي شأن القراءات المتواترة والمشهورة ، والتي يجب الحرص عليها ، والإكثار من حفظها حتى لا يقلّ عددهم - في كل بلد به مسلمون - عن عدد التواتر ، وفي شأن المنع من القراءة بالشواذ . . . أظنّ ذلك الباب ، في كلّ هذه الشؤون ، مع التزامه النصوص السليمة والإجماع المستفيض ، أزال عن الحقائق كلّ الأستار : كثيفها ، فضلاً عن خفيفها ، ولم يدع شيئاً مهماً في تاريخ القراءات إلاّ أوردته .

وقد أبدى المؤلف أن من الواجب تقرير منع القراءات الشواذّ منعاً باتاً من أن تسجّل صوتياً ، حتى لا يقرّأ بها مسلم ، أو يُظنّ أنها والقراءات المتواترة والمشهورة على سوية من الأمر ، وحسب القراءات الشواذّ أنها في الكتب يرجع إليها أصحاب الدراسات الأكاديمية .

• • •

وفي باب التعليم ، تحدثت عن المصاحف المرتلة كمنادج صوتية ممتازة للأداء الشرعيّ الذي تستطيعه الكافة ، ووددت لو صادف الجهد هنا قبولا ، ثم تحدثت عن تيسير هذه المصاحف لتعلّم القرآن ، وكيف أنها الحلّ الوحيد لمشكلة اختلاف الرّسم العثماني الاصطلاحي عن الرسم الإملائي .

• • •

وأما باب الدفاع عن القرآن وعن الإسلام كهدف من أهداف المشروع ، فقد استقصى أحد فصول هذا الباب - ضمناً - أهمّ المطاعن التي وُجّهت إلى القرآن ، ثم استحصرتها ، ثم لقيها جميعاً ، وإنها لمطاعن مختلفة طالما ضاق بها الدارسون ، وانمخض بها بعض البسطاء .

وتكلم فصل آخر عن درء التحريف عن القرآن ؛ وعندما تكلم عن الكتب الدينية الأخرى ، التزم الحياد ، ولم يفعل غالباً سوى أن نقلَ عن نَفْس أتباع هذه الكتب . وأخيراً ، تكلم فصل « التمكين للغة العربية ، وللوحدة الإسلامية » عن أثر المصحف المرتل في هذا التمكين .

• • •

وتكلمت « الخاتمة » عن تقييم المشروع كحدث له في تاريخ المسلمين أثر بعيد ، وذكرت - في شيء من التفصيل كيف ارتضاه الناس ، وعرفوا له جلاله وخطره . وأوردت هذه « الخاتمة » في تقدير المشروع نصوصاً لم يكن من إيرادها بد ، وهي حرية أن تدلّ في صدق على موقف المسلمين من المشروع ، وليس إيرادها - على أية حال - انحرافاً عن الجادة العلمية ، حتى مع ما تضمنته من حديث عن صاحب المشروع .

• • •

وبعد ، فإنّ الفضل من الله وإليه . وأمنيةً هذا العبد الضعيف أن يتفضل المولى بمَنه فيجعل هذا العمل كلّه خالصاً لوجهه ، وأن يتقبله بإحسانه .  
 « رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .  
 « رَبَّنَا أْتَمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

ليب السعيد

obeikandi.com

# تَمْهِيد

١

القرآن أساس الإسلام وقاعدته ، وهو كتاب العربية الأول والأكبر ، وعليه يتوقف دين المسلمين وديناهم : هو - عندهم - سبيلهم إلى الفوز العظيم في الآخرة التي إليها معادهم ، وهو - عندهم - سبيلهم إلى الإمامة والسعادة في الدنيا التي فيها معاشهم . هو أساس وجودهم السياسى والاجتماعى واللغوى والأدبى ، ولديه - فيما يعتقدون - حلول كل مشكلات هذا الوجود . يقول الشافعى : « فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها » (١) .

\*\*\*

وعظم الله حال القرآن « تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى » (٢) فمن التنويه بعظمة القرآن ذُكِرَ عظمة منزله القادر الذى خَلَقَ الأرض إحدى سيارات المجموعة الشمسية . والأرض بما فيها من بشر لا يُحْصَوْنَ مختلفى الصفات البدنية والنفسية والذهنية ، وما فيها من برّ وبحر وسهول وجبال وزروع ومناجم ويتابع للبتروى ، وما فيها أيضاً من أجواء وأزمان وحياة وموت . . الأرض ، بهذا كله ، هى ما هى سعة وعجائب .

ومن التنويه كذلك بعظمة القرآن ذكر عظمة منزله القادر الذى خلق السموات العلى ، وهى لا حصر لكواكبها وبجومها وتوابعها وأجرامها وسدائنها ، أى السُحُبِ الملتببة التى هى أصل النجوم فى مجاميعها .

وبحسب المتفكر فى الأكوان السهوية أن يذكر أن الشمس - وهى كما أثبت علم الفلك مجرد نجم متوسط القدر - جعلها الله سبحانه مصدر الحياة فى الكوكب الأرضى ، ومصدر النور وكل طاقة حتى طاقة الفحم والبتروى المخزونين تحت أطباق الثرى .

(١) الرسالة ص ٢٠ .

(٢) سورة طه / ٤ .

ولم يعنى - جلّ شأنه - بخلق هذه الأكوام جميعها ، ولم يؤدّه رفعها إلى ما هي فيه من علو ، ولم يغب عن علمه شيء من أسرارها<sup>(١)</sup> .

والقرآن - فيما يؤمن به المسلمون - أنزله الله مفصّحاً عن جلاله ، وحجّةً لرسوله باقية الإعجاز على الأحقّاب ، ويبيّنه على أمانته فيما بلغ من وحى .

وهم يعدّونه كتاب العقائد السّامية ، وأولها عقيدة التوحيد .

ويعدّونه كتاب العبادات ، حيث هو الذى يُقرّرها<sup>(٢)</sup> .

ويعدّونه كتاب الأخلاق ، إذ يبحث على الفضائل كلّها ويحذّر من الرذائل كلّها .

وهم يعدّونه كتاب التشريع بعامة : الجنائى ، والمدنى ، والاقتصادى ، والاجتماعى ،

والسياسى ، والدولى والحرى ، ويعدّونه « حجّة الله عليهم وميثاقه الذى واقفهم به »<sup>(٣)</sup> .

وهم - بالضرورة - يؤمنون به إذ يقول عن نفسه : « قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ »

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »<sup>(٤)</sup> . « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى

لِّلْمُسْلِمِينَ »<sup>(٥)</sup> . « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا »<sup>(٦)</sup> .

والقرآن يعرض على الناس أحوال أمم أو جماعات أو أفراد عبّروا بحسناتهم أو بقبائحهم ،

ويذكر ما انتهى إليه أمرهم من خير إن كانوا عملوا خيراً ، ومن سوء إن كانوا عملوا سوءاً . وكما

يعبر : « لِيُؤْتِكَ مِنْ هَلْكَ عَنْ يَبِئَةٍ وَيَحْيَى مِنْ حَيٍّ عَنْ يَبِئَةٍ »<sup>(٧)</sup> ، « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ

عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ »<sup>(٨)</sup> .

(١) انظر : محمد بن أحمد الإسكندراوى : كشف الأسرار النورانية القرآنية - ص ٢٠ ص ٧٦ ،

ومحمد أحمد العمراوى : الإسلام في عصر العلم ص ٤٩ - ٥٥ .

(٢) ولا يطمئن من هذا أنه يدع للرسول أن يبين للناس بعض أحكام هذه العبادات ، بل أن يدع للاجتهاد فرصة

هذا التبين « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » (سورة النحل / ٤٤) ، « وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ » (سورة النساء / ٨٣) .

(٣) انظر خطبة منسوبة إلى علي بن أبي طالب في « نهج البلاغة » ج ٢ ص ١٩٩ و ٢٠٠ .

(٤) سورة المائدة / ١٥ و ١٦ .

(٥) سورة النحل / ٨٩ .

(٦) سورة الإسراء / ٩ .

(٧) سورة الأنفال / ٤٢ .

(٨) سورة يوسف / ١١١ .

ويقول علي بن أبي طالب في القرآن : « ألا إن فيه علم ما يأتي ، والحديث عن الماضي ، ودواء دلائكم ، ونظم ما بينكم » (١) .

وكان ابن مسعود يقول : « من أراد علم الأولين والآخريين فليتل القرآن (٢) » ، وهذا يمثل غالباً اعتقاد المسلمين فيما حواه هذا الكتاب من نفع علمي شامل .

\*\*\*

والقرآن - من الناحية الموضوعية البحث ، وبنص آياته الصريحة - يحزّر الناس من ذلّة الخضوع لغير جلال الله وسلطانه ، ولا ينافر العلم ولا يخاصمه ، بل يُعطي سلطانه وسلطان العقل ، ويحفز الناس إلى النظر والتفكير ، ويحفظهم من مزلق الأوهام والخرافات ، ويعتقهم من الجمود والرق ، ويسوي بينهم ، ويبثّ فيهم الشعور بحقوقهم والإيمان بكرامتهم . وفي ظلّه عرفت البشرية العدل الأمثل حقيقة واقعة لا حلاً ولا أمانةً يخلّق بها خيال فيلسوف ، ولا نظراً أن هناك من يردّ هذا ومعه حجة علمية .

\*\*\*

والقرآن - وهذه حقائق تاريخية واقعة وذاتعة - أنجب عبقریات كثيرة أفادت على الإنسانية خير نتاج في الميادين الشرعية والأخلاقية والعقلية والإنسانية والاجتماعية والرياضية والفلكية والفنون التطبيقية ، وأوجد أدباء وخطباء وعاظماً وعلماء خبراء في النقد الأدبي ، وهو الذي أوجد علماء القراءة والنحو والبلاغة والأصول والفقه والكلام ، وهياً العقول لفهم حضارات الأمم الأخرى وفلسفاتنا ونقلها عبر القرون مزيدة مهذبة . ولقد نشر القرآن لغته وآدابها في أصقاع ما كانت لترودها لولاه . وقد صنّى هذه اللغة من شوائب اللهجات الضعيفة ، ولولاه لاختلفت لغات الشعوب العربية اختلاف فروع اللاتينية أو الجرمانية مثلاً .

والقرآن ، بهذه الخصائص كلّها ، ولأنه أطول من الكتب السماوية التي تقدّمت ، وبكون الإعجاز فيه يفوق سائر معجزات النبيّين ، لأنه - على عكسها - لم ينقرض بانقراض عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وبكون هذا الإعجاز لا ينحصر في الإخبار عن المغيبات والإعلام بالأحكام كما هو الشأن في تلك الكتب ، وإنما يشمل النطق والأسلوب . . . القرآن ، بهذا كلّّه ، يعلو هذه الكتب جميعاً ، وكما يقرر هو : « وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا

(١) نهج البلاغة ج٢ ص ١٣١ .

(٢) الألبوسى : روح المعاني ج١ ص ٧ .

لَعَلِّي حَكِيمٌ» (١) ، «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ» (٢) .

ومن الواضح الذي لا نجافيه نتيجة أى استقصاء أن الدنيا لم تعرف - منذ كانت - كتاباً تجرد أتباعه لحفظه ، وبذلوا أنفسهم فى إتقانه وتفهمه ، وعُتوا به حرقاً حرقاً ، كما فعل أتباع القرآن .

وقد قيل - فى الهجوم عليه ، وفى محاولة صرف أتباعه عنه - إنه مكتوب بلغة ميثية لا يستطيع المسلم أن يفهمها إلا بدراسة خاصة (٣) ، ولكن الواقع الذى يللمه كل ذى بصيرة بالتاريخ أن الدنيا لم تشهد كتاباً يُدانى القرآن فى إقبال أتباعه عليه واستعدادهم به ، وتقديرهم - فى صدق - أنهم دائماً يقرأونه ويكتبونه ويسمعونه ، وهم - مع ذلك - لا يملونه (٤) .  
والشاهد : أنهم - عرباً وغير عرب - سواها فى تعلقهم بالقرآن ، برغم الجهود المعادية المختلفة الألوان ، والتي كانت وما برحت تُبذل لصرفهم عنه . ومن المؤثر حقاً : أن نرى المسلمين غير العرب يرددون آيات القرآن مغالين لُكُنتهم فى محاولات غير هيئة ، حتى إذا سمعوه من أخ لهم عربى أصغوا إليه بملء قلوبهم وأسماعهم ، وعدوها فرصة ثمينة يستديمونها ويستزيدون منها .

وكذلك لم تشهد الدنيا كتاباً يُدانى القرآن فى اعتقاد أتباعه الخير فيه ، وطلبهم النفع عنده ، وأخذهم بأوامره وانتهائهم عن نواهيه . وهم - مع توزعهم فى أرجاء الأرض واختلاف ألسنتهم وأصولهم - يدعونهم يترك فيهم انطباعاته الموحدة غالباً .

ولقد وضح هذا كله للولّى والعدوّ ، فقال قائل المستعمرين « جلاستون » الإنجليزى ، فى أخريات القرن الماضى ، فى مجلس اللوردات البريطانى ، و هو يمسك بالمصحف : « ما دام هذا الكتاب على الأرض فلا سبيل لنا إلى إخضاع المسلمين (٥) » . ومن قبل ، ويُعيد سنة ١٥١٦م التى طبع فيها الزبور للمرة الأولى فى إيطاليا ، طبع القرآن الكريم فى البندقية ، ثم ما لبث النصارى أن أعدموا طبيعته خوفاً من تأثيره على معتقداتهم (٦) .

(١) سورة الزخرف / ٤ . (٢) سورة المائدة / ٤٨ .

(٣) André Servier : Islam and the Psychology of the Musalman . p. 197 .

(٤) الحصرى القيروانى : زهر الآداب وثمر الألباب ج ١ ص ١٠١ .

(٥) هذه القصة ثابتة مستنسخة . (٦) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٤٣ .

## ٢

وإقراء القرآن هو - وهذا شيء طبيعي - أول ما عمد إليه النبي (ص) في إبلاغ دعوته الكبرى . وقد كان مبعوثوه إلى مختلف الجهات يقومون - أول ما يقومون - بإقراء الناس القرآن : كتب النبي لعمر بن حزم ، حين وجهه إلى اليمن ، كتاباً أمره فيه بأشياء منها أن « يعلم الناس القرآن ويفقههم فيه »<sup>(١)</sup> .

وروى البخارى عن أبي إسحق ، عن البراء ، قال : « أول من قدم علينا من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلنا يقرئنا القرآن »<sup>(٢)</sup> . وكان مصعب يسمى المقرئ<sup>(٣)</sup> .

وكان الرجل من المسلمين إذا هاجر إلى المدينة دفعه النبي (ص) إلى رجل من الحفظة ليعلمه القرآن .

ولما فتح النبي مكة خلف عليها معاذ بن جبل يقرئهم القرآن ويفقههم<sup>(٤)</sup> .

وعن أنس بن مالك ، قال : جاء ناس إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : أن ابعث معنا رجالا يعلمونا القرآن والسنة ، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار ، يقال لهم القراء . . . إلخ<sup>(٥)</sup> .

وأوصى النبي بإكرام أهل القرآن ، وسمّاهم اسماً ينبض بأعظم المعاني : سمّاهم : « أهل الله

(١) ابن هشام : سيرة النبي - ص ٤ ص ٢٠٥ .

(٢) انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ص ٢٦١ .

والقراء ( البغوى الحسين بن مسعود ) : مصابيح السنة ج ٢ ص ١٩١ .

والعلالسي : مسند أبي داود الطيالسي ح ٧٠٤ .

(٣) ابن هشام : المرجع السابق - ص ٤٢ .

وانظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى - ص ٨٠ ص ١١٧ و ١١٨ ( ط . بيروت )

والزرقاني : شرحه على المواهب اللدنية - ص ١ ص ٣٧٩ .

(٤) انظر : أبوعلى القارى : شرح العقيلة - الورقة ٦ ( مخطوطة بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، رقمها ٢٣

قراءات ) .

(٥) انظر نفس المرجع . (٦) انظر : مسلم : الجامع الصحيح - ص ٤٥ - باب ثبوت اللجنة للشهيد

وخاصته»<sup>(١)</sup>، وقال فيهم : «أشرف أمتي حملة القرآن»<sup>(٢)</sup> ، وقال : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»<sup>(٣)</sup> . ومن أجل هذا الحديث ، فقد أبو عبد الرحمن السلمى أربعين عاماً يقرئ الناس بجامع الكوفة ، مع جلالته وقدره وكثرة علمه<sup>(٤)</sup> ،

وقد سئل سفيان الثوري عن الجهاد وتعليم القرآن ، فرجع الثاني ، واستدل بهذا الحديث<sup>(٥)</sup> بل إن النبي يُعَلِّمُ مرتبة أصحاب القرآن أيما إعلاء ، إذ يقول إنهم يكادون يحوزون في صدورهم ما حاز الأنبياء ، لولا أنهم لا يتلقون وحى السماء : عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « من قرأ القرآن فقد استدرج الثبوة بين جنبيه ، غير أنه لا يُوحَى إليه »<sup>(٦)</sup> .

والنبي يؤثر أهل القرآن بإمامة الصلاة ، فيقول : «يَوْمُ الْقَوْمِ أَكْثَرُهُمْ قِرَاءً ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقُرْآنِ وَاحِدًا فَأَقْدَمُهُمْ هَجْرَةً ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهَجْرَةِ وَاحِدًا فَأَفْقَهُمْ فَهْمًا ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْفَقْهِ وَاحِدًا فَأَكْبَرُهُمْ سِنًا»<sup>(٧)</sup> .

وكان القراء أصحاب مجلس عمر بن الخطاب وأصحاب مشاورته كهولاً كانوا أو شباناً<sup>(٨)</sup>

(١) رواه ابن ماجه ، وأحمد ، والدارمي ، من حديث أنس

وانظر : المناوي : فيض القدير شرح الجامع الصغير ج٣ ص ٦٧

وعمل بن سلطان القاري : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج٢ ص ٥٧٣ .

(٢) عن ابن عباس ، ورواه الطبراني في : «الكبير»

وانظر : المناوي : المرجع السابق ج٢ ص ٥٢٢ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، في كتاب فضائل القرآن - كتاب ٦٦ باب ٢١

وانظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ج٩ ص ٦١ وما بعدها (ط . المطبعة البية المصرية - سنة ١٣٤٨) .

وأبو داود : كتاب ٨ باب ١٤ والترمذي : كتاب ٤٢ باب ١٥

وإبن ماجه : ج١ ص ٩٢ و٩٣ والدارمي : كتاب ٢٣ باب ٢

والطيالسي : حديث ٧٣ .

(٤) ابن الجزري : النشر في القراءات العشر ج١ ص ٣ .

وأبو نعم : حلية الأولياء ج٤ ص ١٩٤ .

(٥) ابن الجزري : نفس المرجع ج١ ص ٥٥٢ .

(٦) انظر : الحاكم النيسابوري : المستدرک ج١ ص ٥٥٢ .

(٧) انظر : نفس المرجع ج١ ص ٢٤٣ .

والبنوي الفراء : مصابيح السنة ج١ ص ٥٥ و٥٦ .

(٨) هذا قول ابن عباس . .

وانظر : صحيح البخاري - كتاب التصير - باب «خُدِّ الْعَمْرُ وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» ح ٤٦٤٢ ،

وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب الاقتداء بسن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وانظر أيضاً ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ج٨ ص ٣٠٤ وما بعدها و ج٣ ص ٢٥٠ وما بعدها (ط . محب الدين الخطيب).

والقرآن يعنى صاحبه عن كلِّ حسب ونسب ، وشرفُ التَّفَقُّه فيه فوق كلِّ شرف ، ألا ترى أنه لا يصدِّ واحداً من أهل القرآن عن إمامة الناس أن يكون أعرابياً أو عبداً مملوكاً أو حتى ولد زناً<sup>(١)</sup> .

والقيام على خدمة المصحف وتعليمه للناس هو فخر الفاخرين . يقول العجاج في رَجَزِهِ :

ثم رأى أهل الدِّسَعِ الأعظم خندف الجَدَّ الخِضَمَّ المخضَمَّ  
وذروة الناس وأهل الحكَمِ ومستقرَّ المصحف المرقَمِ  
عند كريم منهم مكرمٍ معلِّمٍ آى الهدى معلِّمٍ  
مباركٍ للأنبياء خاتمٍ فخندف هامة هذا العَالمِ<sup>(٢)</sup>

• • •

وسمى الله القرآن ذكراً ، وتوعَّد المعرض عنه ، فقال : « وَقَدْ آتَيْتَكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۚ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۚ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا »<sup>(٣)</sup> .  
وقال : « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۚ قَالَ رَبُّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۚ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى »<sup>(٤)</sup> .

(١) هذا قول أبي حنيفة ، وبه يأخذ صاحبه محمد بن الحسن الشيباني

وانظر : محمد بن الحسن الشيباني : كتاب الآثار ص ١٧

(٢) مجموعة أشعار العرب ، وهو يشتمل على ديوان الأراجيز للعجاج والرقبان ص ٦٠ الآيات ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ .

وقيل إن العجاج كان يهز ( العالم ) و ( الخاتم ) ونحوهما . ( انظر : محمد بن النجار : مباحث لغوية - الإبدال - بحث في مجلة الأزهر ، مجلد العام ١٣٦٦ هـ ص ٤٥٥ ) .

والدسيع من الإنسان : العظم الذى فيه الترقوتان ، وقيل : هو مركب العنق فى الكاهل ، وقيل : الدسيع :

الصدر والكاهل .

وخندف : امرأة إياس بن مضر بن نزار ، واسمها ليل ، والخندفة : مشية كالمهولة ، قالت خندف لزوجها : ما زلت أختندف فى إثركم ، فقال لها : فأنت خندف ، فذهب لها اسماً ، ولولدها نسباً ، وسميت بها القبيلة .

والخضم : السيد المحمول الجواد المعطاء الكثير المعروف والعطية .

والمخضم : الموسع عليه من الدنيا .

وانظر : ابن منظور : لسان العرب ، فى المواضع المختصة .

(٣) سورة طه / ٩٩ - ١٠١ .

(٤) سورة طه / ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ .

يقول ابن قيم الجوزية فى ( مفتاح دار السعادة ج ١ ص ٤٢ ، نشر مكتبة الرياض الحديبية بالرياض ) فى شأن قوله تعالى : « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي ... » : وليس المعنى : ومن أعرض عن أن يذكرنى ... وأحسن من هذا الوجه أن يقال : الذكْر هنا مضاف لإضافة الأسماء لا إضافة المصادر إلى معمولاتها ... والمعنى : ومن أعرض عن كتابى ولم يتبعه ... فإن القرآن يسمّى ذكراً :

والقرآن يعجب من المعرضين عنه والنافرين منه ، ويتهم عليهم : « فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذَكُّرِ مُعْرِضِينَ • كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ • قَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » .  
 وخوف النبي المسلمين من نسيان القرآن تخويفاً فعلاً ، فقال : « ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة أجدم » (١) .

وكما أن الناس مُتَعَبِدُونَ باتباع أحكام القرآن وحفظ حدوده ، فهم مُتَعَبِدُونَ بتلاوته وحفظ حروفه (٢) ، بل إنه ورد في الحديث « أفضل العبادة قراءة القرآن » (٣) ، كما ورد « أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن » (٤) .

وقد أثنى الله على من كان دأبه تلاوة القرآن ، فقال « يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ إِذَا آتَاهُمُ الْبُيُوتِ » (٥) ، « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ • لِيُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ » (٦) .

والنبي يحض على حفظ القرآن ودوام تلاوته والعمل به ، فيقول : « مَثَلُ الْمُؤْمَنِ الَّذِي يقرأ القرآن مَثَلُ الْأُتْرَجَةِ (٧) : ريحها طيب ، وطعمها طيب ؛ ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مَثَلُ الثَّمَرَةِ : لا ريح لها ، وطعمها طيب حلو ؛ ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مَثَلُ الرِّيحَانَةِ : ريحها طيب ، ولا طعم لها ؛ ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ : ليس لها ريح وطعمها مر » (٨) .

= قال تعالى : « وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ » (سورة الأنبياء / ٥٠) .

وقال تعالى : « ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ » (آل عمران / ٥٨) .

وقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » (فصلت / ٤١) .

وقال تعالى : « إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ » (يس / ١١) .

ويقول ابن كثير الدمشقي في الكلام عن شروع آية : « ومن أعرض عن ذِكْرِي . . . : إن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعريضه للنسيان ، وعدم الاهتمام به فيه تهاون كبير وتفريط شديد ، نعوذ بالله منه (انظر : فضائل القرآن ص ٦٩) .

(١) سورة المذثر / ٤٩ - ٥١ . (٢) انظر : البغوي الفراء : مصابيح السنة ج ١ ص ١٠٥ .

(٣) المناوي : فيض القدير ج ٢ ص ٤٤ . (٤) ابن الجزري : الشرح ج ١ ص ٣٨ .

(٥) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » ، وانظر المرجع السابق .

(٦) سورة آل عمران / ١١٣ . (٧) سورة فاطر / ٢٩ و ٣٠ .

(٨) هي ثمرة جامع لطيب الطعم والرائحة وحسن اللون .

(٩) أخرجه البخاري في ٧٠ - كتاب الأطعمة : ٣ - باب ذكر الطعام ، (رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجه ،

عن أبي موسى الأشعري)

وانظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ج ٩ ص ٥٤ و ٥٥ (ط . المبية) .

وفي صحيح مسلم<sup>(١)</sup> عن عائشة قالت : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « الماهر بالقرآن : مع السقرة<sup>(٢)</sup> الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع<sup>(٣)</sup> فيه ، وهو عليه شاق : له أجران »<sup>(٤)</sup> .

وعن ابن عباس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أحب الأعمال إلى الله الحال المرتحل » .

قالوا : ومن الحال المرتحل يا رسول الله ؟

قال : صاحب القرآن يقرأ من أوله لآخره ، كلما حل ارتحل<sup>(٥)</sup> .

\*\*\*

وقد جاز التبديل والتغيير على أهل الكتب الدينية الأخرى ، فقد حرفوا الكلم من بعد مواضعه<sup>(٦)</sup> ، وشهد شهود منهم أن بعضهم كتبوا الكتاب بأيديهم ، وكما عبر القرآن - « وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »<sup>(٧)</sup> . واندرست على الأيام الكتب القديمة التي ذكرها الله في كتابه في قوله : « إِنَّ هَذَا لِنِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى »<sup>(٨)</sup> ، ولا يُعرف اليوم منها شيء ، أما القرآن فمحفوظ أبداً في الصدور ، وفي السطور ، « لا يفسله الماء » كما جاء في حديث قدسي<sup>(٩)</sup> .

(١) حـ ٦٤ ص ٨٤

(٢) يعنى : في منازل الملائكة ، لأنه يحمل - مثلهم - كتاب الله تعالى .

(٣) يتردد في تلاوته لضعف حفظه .

(٤) أجر القراءة ، وأجر المشقة .

(٥) انظر : القرطبي المفسر : الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٠ .

(٦) سيكون لنا في أحد فصول الكتاب حديث مفصل في هذا الشأن ، إن شاء الله .

(٧) سورة آل عمران / ٧٨

(٨) سورة الأعلى / ١٨ و ١٩

(٩) أى أن محوه من الصحف بالماء لا يؤثر فيه ولا يزيله .

وانظر : مسلم بن الحجاج : الجامع الصحيح حـ ٨ ص ١٥٨ و ١٥٩ ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل

الجنة وأهل النار .

وانظر : ابن الجوزي : الشرح ص ٦

## ٣

ويقول « يوسف على » مترجم معاني القرآن إلى الإنجليزية : « ليس في الدنيا كتاب وُضِعَ في خدمته مثل هذه الكثرة من المواهب التي وُضِعَتْ في خدمة القرآن ، ولا مثل هذه الوفرة من العمل والوقت والمال »<sup>(١)</sup>. وهذا حق ، فقد عنى المسلمون بالقرآن عناية لم يظفر بها - على مدى التاريخ - أي كتاب سماوي أو غير سماوي . ولعل من مصاديق هذه العناية هذه الأعداد الضخمة من الكتب الجليلة التي خَدَمَتْ علوم القرآن منذ أقدم القرون الإسلامية ، وهذه البحوث والفنون التي كان القرآن دائماً موضوعها<sup>(٢)</sup> .

( أ ) فقد عنى القراء بضبط لغات القرآن ، وتحريم كلماته ، ومعرفة مخارج حروفه ، وعددها ، وعدد كلماته وآياته ، وسوره وأجزابه ، وأنصافه ، وأرباعه ، وعدد سجدياته . وحصر الكلمات المشابهة ، والآيات المتماثلة .

( ب ) واشتغل النحاة بالمعرب منه من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها ، وتكلموا في الأسماء ، وتوابعها ، وضروب الأفعال ، واللازم ، والمتعدى ، ورسوم خط الكلمات ، وتوسعوا في شواهده ، حتى لقد أحصوا منها - فيما قيل - ثلاثمائة ألف بيت من الشعر . يقول « مصطفي صادق الرافعي » تعقيباً على هذا : « ولعمر أبيك إنها لمعجزة في فنها<sup>(٣)</sup> » . وبلغ من عناية بعضهم بالقرآن أن أعربه كلمة كلمة<sup>(٤)</sup> .

( ج ) وانتفت المفسرون إلى ألفاظه وإلى معانيه ، فأوضحوا الخفي منها ، وخاضوا في ترجيح المعاني التي يختارونها للألفاظ . وقد ذكر « حاجي خليفة » من تفاسير القرآن وكتب

Commentaries on the Quran, p. IX.

( ١ )

( ٢ ) نقلاً عن : السيوطي : الإبتقان ج ٢ ص ١٢٦ و ١٢٧ بصرف ، ويذكر السيوطي أن أبا بكر بن العربي ذكر في قانونه « التأويل » أن علوم القرآن ٧٧٤٥٠ ، على عدد كلم القرآن مضروبة في ٤ ، على أساس أن لكل كلمة ظهراً وبطناً وخبأً ومطلماً ، وذلك في المفردات وحدها ، فأما إذا اعتبرت التراكيب وما بينها من روابط كان ما لا يحصى إلا الله تعالى ( نفس المرجع ص ١٢٨ ) .

وانظر أيضاً الكتب المصنفة في الموضوعات القرآنية في : ابن النديم : الفهرست ص ٣٣ - ٣٥ ( ط ، أوربا )

( ٣ ) إعجاز القرآن - هامش ص ١١٩

( ٤ ) انظر مثلاً :

العكبري : إملة ما من به الرحمن من وجوه إعراب القرآن .

وابن خالويه : كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم .

معانيه ومشكله ومجازه وغريبه ولغاته وقراءاته ، ذكّر من هذا بعض ما عرف في زمنه ، فبلغ ما ذكره مئات كثيرة (١) .

( د ) واتجه الأصوليون إلى القرآن يستنبطون مما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية علم أصول الدين ، كما يستنبطون منه أحكام اللغة : من الحقيقة ، والمجاز ، والتخصيص ، والإخبار ، والنص ، والظاهر ، والاحتمل ، والمحكم ، والمتشابه ، والأمر ، والنهي ، والنسخ ، إلى غير ذلك من الأقيسة ، واستصحاب الحال ، والاستقراء .

( هـ ) وتخصص علماء الفروع في إحكام النظر والفكر فيما في القرآن من الحلال ، والحرام ، وسائر الأحكام .

( و ) وأخذ أهل التاريخ والقصص من معين القرآن تاريخ الأمم الخالية وقصص القرون السالفة .

( ز ) واعتمد الخطباء والوعاظ - في وعظهم - على ما في القرآن من الوعد ، والوعيد ، والتحذير ، والتبشير ، وذكر الموت ، والميعاد ، والحشر ، والحساب ، والعقاب ، والثواب ، والجنة ، والنار .

( ح ) وأقام علماء الفرائض علمهم على نصوص القرآن وشرحها .

( ط ) كما استخرج أصحاب علم المواقيت قواعد علمهم من آيات القرآن .

( ي ) وكذلك استنبط البلاغيون علوم المعاني والبيان والبديع من نظرهم إلى ما في القرآن من جزالة اللفظ وبديع النظم ، وحسن السياق ، والمبادئ ، والمقاطع ، والمخالص ، والتلويح في الخطاب ، والإطناب ، والإيجاز ، وغير ذلك .

( ك ) ومن معاني القرآن ودقائقه أخذ الصوفية مصطلحات فَنَمَ ، وقبوا أنوار طريقهم .

## ٤

والقرآن في كل بلد إسلامي هو دستوره الحي الأصيل . ومصر بالذات تأخذ بالقرآن منذ دخلها الإسلام . وقد نصّت دساتيرها المتعاقبة في العصر الحديث على أن دينها الرسمي هو الإسلام دين القرآن ، وأن لغتها الرسمية هي اللغة العربية لغة القرآن ؛ وهذه الجمهورية - فوق

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ص ٣٣-٣٦ .

ذلك - هي الآن ، ومعها بلاد إسلامية شقيقة ناهضة ، موئل الدراسات الإسلامية والآداب العربية ، وكلها تعتمد - أول ما تعتمد - على القرآن .

• • •

وقد يعترض معترض على الأخذ بالقرآن بإطلاق ، وعلى اتخاذه دستوراً وسيلاً إلى الإمامة في الأرض ، فيقول إن الأعصر الحديثة غير العصر الذي جاء فيه ، ولكن هذا الاعتراض محجوج بما ذكرنا مضمونه في أكثر من كتاب من كتبنا ، وهو أن للقرآن منهجاً خاصاً في تقرير الأحكام ، فهو يضع - بما يناسب روحه ويساير وجهته - الأصول الكلية والمبادئ العامة ، ثم يدع للسنة تفسير هذه الأصول والمبادئ ، ويدع للمجتمع - بعد الرسول - تطبيقها بما يكفل مواجهة ظروف الحياة المتجددة ومطالب الأزمنة والبيئات المتغيرة . وعندنا - في غير خروج على الموضوعية - أنه ليس يصعب على أهل القرآن - إذا عرفوا الأشباه ، وقاسوا الأمور بنظائرها ، ورجعوا إلى أعراف الناس ، في الاستطابة والاستنباط ، وانتفعوا بالاستدلالات ، والتفريعات ، وسائر قوانين الاستمداد ، وقوانين الاستنباط . مما عني به علم الأصول . . . ليس يصعب - إذا فعلوا ذلك - أن يستخلصوا من آي الكتاب ، ومن السنة الشارحة ، ومن تطبيقات السلف : مبادئ مثالية على الدوام ، توائم أحوالهم ، وتحقق مصالحهم ، وأن يطبقوها متميزين ، آخذين من كتابهم : نصوصه وروجه ومعقوله ، مسيغين ما يأخذون ، متبوعين لا تابعين (١) .

(١) انظر : لبيب السعيد : العلاقات العمالية الإنسانية وأيديولوجيتها في المجتمع العربي ص ١٩١ (الطبعة الثانية) .